الفصل السادس

عمل بولس الحوارى

(١) استقلال بولس عن الحواريين الفلسطينيين – موقفه الأول تجاههم – كيف وجه برنابا نشاطه – حياة بولس كمبشر.

(ب) ما أفاده من تلك الحياة – مشكلة دخول غير اليهود فى الإيمان – كيف دفعت هذه المشكلة بالفكرة المسيحية الخاصة بالبعث إلى أن تصبح ديناً متميزاً – عقيدة بولس المسيحية تسير فى نفس الاتجاه – كيف كان يدرك شخصية المسيح ورسالته – « المنقذ » و « ابن الله » ، والتكفير عن الخطايا – جوانب « الغنوصية » فى هذه العقيدة.

(حـ) تأثير طقوس وشعائر المشركين الذين اعتنقوا المسيحية على فكرة التعميد والقربان عند بولس – إلى أى حد يمكن اعتبار بولس مؤسساً للمسيحية.

obeikandi.com

(١)

تخبرنا مجموعة « أعمال الرسل » بأن المكان الذى تم فيه تحول بولس إلى المسيحية كان على طريق دمشق ، وأن دمشق كانت مركز نشاطه الأول . ولا يضيرنا تصديق روايتها فى هذا . فالأمر الذى يهمنا هو ملاحظة أنه لم يتدرب على التبشير بالمسيحية فى القدس أو على أيدى الحواريين الاثنى عشر ، وأنه لم يعدّ نفسه تابعاً لهم . لقد أيقن أن عيسى نفسه ، المسيح الممجد ، نصبه حواريًّا بإرادته الخاصة ، فهو لذلك يرفض أن يشكك أحد فى هذا التشريف ، كما يشعر بأنه فى غير ما حاجة إلى إرشاد أو نصح من بشر أيًّا كان . ولنذكر هنا تصريحاته المترفعة الواردة فى « الرسالة إلى أهل غلاطية » (١٠/١ وما يلى) :

« . . . هل أنا أبشر الإنسان أو الله ؟ أو هل أريد أن يعجب بى الإنسان ؟ لو أنى ظللت إلى الآن موضوع إعجاب الإنسان ، لما كنت خادماً للمسيح . أؤكد لكم إذن يا إخوتى ، أن الإنجيل الذى أبشر به ليس من الإنسان ؛ فإنى لم أتعلمه من الإنسان بل ألهمه إياى عيسى المصلوب .

« . . عندما شاءت إرادة الذى اصطفانى ، يوم كنت فى بطن أمى ، ونادانى بفضله ، أن يظهر ابنه فى ذاتى ، حتى أبشر بالنبأ الطيب (لمجيئه) فى ديار المشركين ، عندئذ لم أشاور اللحم والدم (بمعنى : لم أشاور أى إنسان) ، ولم أصعد إلى القدس نحو (هؤلاء الذين كانوا) حواريين قبلى . . . لم أصعد إلى القدس للتعرف على بطرس إلا بعد ثلاث سنوات » .

ولنلاحظ من ناحية أخرى أن جوهر التعاليم المسيحية اقتصر بالتأكيد على

مجموعة بسيطة من الجمل ، نرجح أن بولس كان على علم بأهمها قبل رؤياه الحاسمة ، ولذلك لم يجد عنتاً فى القيام فوراً بتدريس ما أصبح يؤمن به . ولكنه يسهل علينا أن ندرك الحافز الذى دفع بأهل القدس – دون أن يرتابوا فى إخلاصه لدينه الجديد – إلى التحفظ فيما يتعلق بحقيقة ما ادعاه من رسالة ، وإلى عدم الاقتناع فى يسر بحديثه الواثق عن عيسى وكأنه عرفه مثلما عرفوه وأقام بجواره مثلما أقاموا ، وهو الذى لم يحظ من ذلك بشىء فلما رأى ، فى أعقاب سنوات ثلاث ، أن يصعد إلى القدس ، لم يجد فى مجتمع الحواريين المحدود بها سوى نظرات الحذر والتشكك ؛ ولولا برنابا لما استطاع حتى الاتصال بهذا المجتمع : فقد أعجب هذا الحوارى بحماسة بولس وقوة يقينه ، فسار به إلى بطرس ويعقوب اللذين رأيا استقباله والاعتراف برسالته . ومنذ ذلك الحين كان ولا شك يفترق عن الحواريين فى « الأمور الخاصة بعيسى » أى أنه كان يتعلق بصورة المسيحية التى رسمها الهيلينستيون ، والتى كانت أوسع فى أبعادها من صورتها لدى الحواريين . وتروى لنا « أعمال الرسل » (٢٩/٩) : أن العروض التى قدمها لآرائه فى معابد القدس ، معابد اليهود التى كان يرتادها الهيلينستيون ، أثارت ضجة كبرى اضطر بولس بسببها إلى الإسراع فى مغادرة المدينة . وارتحل إلى الشام وإلى سيليقيا ، أى إلى أنطاكيا وطرسوس . وفى هذه المدينة الأخيرة جاء إليه برنابا ، بعدما رأى من أمر المسيحية فى أنطاكيا وما كشفه له هذا من آفاق المستقبل بالنسبة إلى العقيدة الجديدة فى العالم اليونانى . وكان برنابا رجلا ألمعيًّا ويا ليتنا نعرف عن حياته المزيد . فالفضل يرجع إليه فى إقناع بولس بأن يقوم بنشر كلمة عيسى الطيبة بين أرجاء العالم ، وبأن يبدأ من أجل ذلك حياته العنيفة كمبشر فى آسيا الصغرى وفى اليونان ، حتى

منعته عن ذلك السلطات الرومانية فى القدس . . كان يرتحل من بلدة إلى أخرى ، ولا يقيم بضعة أيام فى أى منها إلا حينما يجد جاليات يهودية هامة . وكان يبدأ بالحديث فى المعابد فيثير فيها عادة لدى اليهود المخلصين غضباً عنيفا على ما يسميه بـ « إنجيله » . وعندما يستطيع أن يهدئ من روعهم ويطمئن إليهم لفترة ما ، نراه يحاول إقناع من يأتى إليه من طلاب المعرفة ، ويتحدث إليهم فى بعض البيوت الخاصة . فإذا ما نجح فى دعوته إلى درجة ترضيه ، أقام بالمكان بضعة أشهر - كما فعل بالنسبة إلى كورينثيا - أو عاد إليه بعد حين - كما فعل بالنسبة إلى أفسوس . وفى أثناء ذلك كله كان يكاتب سائر الكنائس التى « غرسها » ، فى نشاط يزداد أو يقل حسب أهميتها ، بغية تدعيمها فى إيمانها وإرشادها إلى جادة الحق عندما تخرج عنها . وليس من همنا هنا أن نفصل حياة بولس هذه ، العامرة بالنشاط ، الحافلة بالمخاطر والمغامرات ، البالغة الخصوبة ولكن علينا أن نحاول إدراك ما تعلمه منها .

(ب)

علمته هذه الحياة بادئ ذى بدء ، وفى وضوح تام ، حقيقة لم يكن الحواريون الاثنا عشر ليتقبلوها فى سهولة ، ولم يكونوا ليدركوا أبعادها مثل إدراكه . تلك الحقيقة هى : أن « المتقين الله » كانوا يؤمنون فى سهولة بفكرة « المسيح » ، وكانت غالبية اليهود الخالصين يضعون على آذانهم وقلوبهم غشاء عندما يدعوهم المسيحيون إلى ذلك . فهل كان على الأتباع . والحال هذه ، أن يتركوا اليهود فى ضلالهم يعمهون ، ويحملون دعوة الحق خارج ديار بنى إسرائيل ؟ وإلى جانب المريدين من « المتقين الله » - الذين امتازوا على الأقل

بثقافتهم اليهودية – كان لا بد أن يأتى إلى الإيمان الجديد وفود من المشركين البسطاء . فهل للمبشرين بالمسيحية أن يقبلوهم فيها ويعدوهم بنصيبهم من مملكة الله ؟ هل يصبح هؤلاء الأجانب ، الذين يجهلون شريعة موسى ، أصحاب حق فى ميراث أمة « يهوه » ؟ . . لا غرابة أن نرى الحواريين الاثنى عشر ، وهم الذين أشربوا بتعاليم عيسى وظلوا على يهوديتهم العميقة ، يستنكفون كثيراً من مثل هذه النتائج التى توصل إليها بولس . ويبدون أمامها تردداً قويًّا ، إلا أنه فرضها عليهم فرضاً ، إذ استطاع إيجاد البراهين المقنعة بشأنها معتمداً على تحليل أوجه النجاح التى لمسها خلال رحلته التبشيرية الأولى فى ربوع آسيا الصغرى ؛ ثم إن مجتمع القدس كان يظن أن روحاً إلهية تسير الحوارى الثالث عشر فيما يقوم به من أعمال . وكان هذا المجتمع فقيراً ؛ وكانت كنائس بولس تضم أحياناً بين أتباعها أثرياء القوم وكرامهم ، وكان الحوارى خبيراً بأساليب حثهم على مساعدة الكنيسة الأم . ومن ناحية أخرى ، كيف لا يعترف إنسان بفضل تلك القوة التبشيرية بعد أن نشرت اسم المسيح الممجد فى كل تلك البلدان المختلفة ؟ ولما أصبح مبدأ دخول المشركين فى الدين الجديد مقبولا وجد أنه من الصالح تيسير تطبيقه . وكان بولس على علم بأن عملية الختان لا يرضى عنها أهل اليونان ، وبأن أغلب أحكام الشريعة اليهودية للحياة العملية لا تتفق مع عاداتهم وأساليب تفكيرهم ؛ فلم يلبث أن آمن بأن تعاليم هذه الشريعة قد نسختها تعاليم المسيح ، بل بأن هذا المسيح أتى خصيصاً ليبدل عهداً قديماً بعهد جديد . وأذعن الاثنا عشر لبولس مرة أخرى فتقبلوا فكرة إعفاء الأتباع الجدد فى ديار الوثنية من أحكام شريعة اليهود . وكان المعنى الضمنى لهذا الإجراء : التفرقة بين المسيحية واليهودية ودفع الأولى إلى أن تصبح ديناً متميزاً .

وصارت هذه النتيجة أمراً محتماً بفضل نظريات بولس فى المسيحية ، تلك النظريات المتأثرة بالفكرة الهيلينستى ، والتى غيرت تغييراً عميقاً من تصوير الحواريين الاثنى عشر لعيسى ولحياته وموته . ولم يلبث الداعية أن أدرك أن فكرة البعث وحلول مملكة الله لا تهم الإغريق كثيراً ؛ بل لم تكن لتجد لها تفسيراً ودعامة إلا بمزجها فى عناصر الأمل القومى اليهودى . وإذا أريد للمشركين أن يتفهموها كان لا بد من توسيع مداها وتقريبها من بعض المفاهيم المعتادة فى تعاليم « الأسرار » الوثنية : فيقدم المسيح لا على أنه الرجل الذى نفخ فيه « يهوه » من قوته نجدة للشعب المختار فى محنته وتمكيناً له من مضطهديه ، بل على أنه مبعوث الله حقيقة ، أرسل ليحمل إلى الناس جميعاً « الخلاص » واليقين بحياة أخرى سعيدة تجد فيها الروح – على الأخص – تحقيقاً كاملا لما تطيح إليه من المصير الأمثل ، ورأى بولس بوضوح أيضاً : أن الأتباع الجدد من المشركين لم يكونوا ليتقبلوا كل القبول « فضيحة الصليب » ، وأنه يجب تفسير ميتة عيسى المشينة – التى لم يكف الأعداء بطبيعة الحال عن الرجوع إليها – تفسيراً مرضياً يجعل منها واقعة ذات مغزى دينى عميق . وأعمل الحوارى فكره فى هذه المشكلة المزدوجة وذلك بطبيعة الحال حسب الاتجاه الذى رسمه له مجتمع المهجر « الهيلينستى » ؛ ووضع لها حلا كان له صدى بالغ المدى : لقد تجاهل فكرة « عيسى الناصرى » . التى أغرم بها الاثنا عشر ، ولم يتجه إلا إلى « عيسى المصلوب » فتصوره شخصية إلهية تسبق العالم نفسه فى الوجود ، وتمثل نوعاً من التشخيص لروح إله ؛ تصوره « رجلا . . . رجلا سماويًّا » ، احتفظ به الله إلى جانبه أمداً طويلا ، حتى نزل إلى الأرض لينشئ فيها حقًّا بشرية جديدة يكون هو « آدمها » . وقد عثر الحوارى على العناصر الجوهرية لكل هذه

التركيبات الفكرية فى مجموعة معينة من التصورات المعتادة فى « الأسرار » عثر عليها ، فى غالب الظن ، دون أن يبحث عنها ، وكأنها نتاج طبيعى لتفاعلات فى ذاكرته وفى عاداته الفكرية . وإن النصوص التى تلقى اليوم أقوى الأضواء على العقيدة المسيحية لبولس حسب ما شرحناها به ، لهى النصوص « الباطنية » ، أى : المأخوذة عن « الأسرار » نفسها .

وهذه العقيدة تنتهى - إذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير - إلى ثمرة تبعث كثيراً على الاستغراب ؛ تلك هى : أن السيد عيسى يصور لنا ابناً لله . ولكن فكرة الله ، بالنسبة إلى بولس ، تدخل ضمن ميراثه من العقيدة اليهودية . وقد نتج عن هذا أن التوحيد اليهودى يفرض نفسه على عقله فرضاً مطلقاً سابقاً لكل الأمور الأخرى . والإله عنده هو « الأعلى » المتميز تماماً عن الطبيعة والذى لا ينتشر فيها على أية صورة من صور وحدة الوجود . فكيف إذن يتأتى تصور أن يكون له ابن ؟ أو - بعبارة أخرى - كيف تفهم علاقة البنوة التى يراها بولس بين « السيد » والله ؟

وقد يميل ، بادئ ذى بدء ، إلى الاعتقاد بأن الأمر لا يتعدى أسلوب حديث معين أو صورة بلاغية . فاليهود كانوا يطلقون عبارة « خادم يهوه » على كل إنسان يظنون لديه « إلهاماً » منه . والتوراة « السبعينية » كثيراً ما تترجم هذه العبارة إلى اليونانية بالكلمات التالية : παῖς τοῦ θεοῦ وكلمة παῖς تعنى فى وقت واحد « خادماً » أو « طفلا » ، تماماً كالكلمة اللاتينية puer . وعلى هذا يكون التطور فى اللغة اليونانية من παῖς ، أى « طفل » ، إلى υἱός أى : « ابن » ، أمراً فى غاية من البساطة . وقد حدث مثل هذا التطور اللفظى فعلا فى النصوص اليهودية - المسيحية (كمجموعة « أعمال الرسل ») عندما

obeikandi.com

نقل بعضها إلى رسائل بولس[1] . إلا أن التحليل الدقيق لكتابات صاحبنا يدل على أنه كان أكثر عمقاً فى التفكير من أن يتنزل إلى مثل هذا التلاعب الهزيل بالألفاظ . ويكفى لإثبات ذلك أن نذكر النص المشهور من « الرسالة إلى أهل روما » (٣٢/٨) ، حيث يقول : إن الله « لم يعف ابنه نفسه وضحى به من أجلنا جميعاً » . ولكن بولس لم يكن ليدرك فى ذلك الوقت كل ما ترتب على مفهوم « ابن الله » بعد ذلك من مشاكل فى فلسفة الدين لا تحصى . وهذا أمر يجب ألا نتناساه أيضاً ؛ ويترتب عليه احتمال أنه لا يستخدم التعبير إلا بمعنى تقريبى ، يحاول به أن يفصح قدر المستطاع – بإنشاء مقارنة ضمنية لاتبعد عن الذهن البشرى – عن علاقة « فوق بشرية » لا يجد لها الاصطلاح الجامع المانع الذى يرضيه .

أما ما يجب تجنبه فى هذا المجال فهو القول بأن هناك خلطابين « السيد » وبين « الله » ؛ فمثل ذلك الخلط لا يمكن تصوره لدى بولس الذى لم يكن لتخطر على باله فكرة « الثالوث » . إن « السيد » ، عنده ، يهيمن عليه الله (انظر « الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » ، ٣ / ٢٣) ، وهو طوع أمر الله « حتى الموت » انظر « الرسالة إلى أهل فيليبا » ٢ / ٨) ، وخاضع له تمام الخضوع (انظر « الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » ، ١٥ / ٢٨) . ولا نجازف بالقول عندما نرى أن نص « الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » (٨ / ٦) يحكم سائر جوانب المسألة . وفيما يلى هذا النص : « بالنسبة إلينا نحن على الأقل ، ليس هناك سوى إله واحد ، هو الآب ، منه كل شيء ونحن فيه ؛ وليس هناك سوى سيد واحد ،

(١) تعبير « ابن الله » لا يرد سوى مرة واحدة فى « أعمال الرسل » (٩ / ٢٠) ويقدم لنا فى تلك المجموعة باعتباره تعبيرا خاصًا ببولس ، وهذا أمر جدير بالملاحظة .

هو عيسى المصلوب ، به كل شىء ، ونحن به » . وهكذا ، فمهما بلغ أمر « السيد » من خطورة ووجوب بالنسبة إلى عمل الله ، فإنه لا يتساوى معه قط . ولكنه يمثل روحه ؛ و « الرسالة الثانية إلى أهل كورينثيا » (٣ / ١٧) تخبرنا بأن « السيد هو الروح » . ولا يستطيع بولس أن يأتى بم يقرب أكثر من هذا بين اللفظين البالغين فى السمو أقصى درجاته ، وهما « السيد » و « الله » ؛ وتلك هى بالذات العلاقة الوثيقة التى عبر عنها بلغة البشر عندما قال : إن « السيد « هو « ابن الله » ، دون أن يفترض هذا التعبير إيماناً منه بنظرية البنوة فى معناها الحرفى .

وإذا أردنا التحديد وجب القول بأن بولس كان يرى أن « السيد » يمثل بمفرده « صنفاً من أصناف الخليقة » ، يعتبر أقرب صنف إلى الله ، ويمكن وصفه بـ « إلهى » . ومن ناحية أخرى ، فن المؤكد لدينا أن الاعتقاد بألوهية المسيح بعد ذلك كان لابد له من النمو ، إذ بدا تصوير بولس له مشوباً بالكثير من التردد والنقص ، بحيث لم يقدر له مقاومة الزمن . واتجهت تقوى المؤمنين فى قوة ، دون ما إدراك للعقبات ، إلى تنشيط الإيمان بالوحدة بين « السيد » والله .

وتحول عيسى بذلك إلى رسول لله بعث إلى العالم أجمع ، سابق للكون وللزمن ، تتمثل فيه الروح القدس التى تعتبر جوهره الربانى ، ويعمل على تنفيذ خطة الله الكبرى المتعلقة ببعث الإنسانية وخلاصها .

وهكذا أصبح موت عيسى واضح المفهوم : إن بنى الإنسان لينوءون بثقل خطاياهم ، فلا يجدون سبيلا إلى النور الإلهى . وقد أراد المسيح أن يهديهم السبيل ؛ فحمل عنهم آثارهم وكفر عنها بعذابه وموته . وبالتالى ، كان على البشر أن يتوحدوا فيه – بالاطمئنان والحب قبل كل شىء – حتى يشاركوا فى

فضله ويجدوا الرحمة يوم القيامة . وهكذا أيضاً أصبحت « الفضيحة الكبرى » المزعومة هي هي : السر الأعظم ، والهدف ، والعلة الأولى لمجيء عيسى برسالته ؛ وليس أدل على ذلك من قول بولس بأن سائر عمله التبشيري لم يكن سوى (حديث للصليب) . ولم يكن هذا الحديث بالذي لايتأثر به اليونانيون ، بل كان لابد له من أن يستثير عاطفتهم ؛ ولم يكن أيضاً ، في حد ذاته ، ليفرض شيئاً لايرضى عنه الحواريون الاثنا عشر ، مادام قد حفظ لهم روعة ذكرياتهم الواقعية كلها ، وأضاف سموًّا وإجلالا لم يكونوا بالغيه في صورة أستاذهم . سوى أنه أدى إلى تغيير جذري لحدود ومعنى العقائدية الواسعة التي كانت غريبة ، بل مكروهة ، لدى البيئة التي عمل هذا الأستاذ ، كما وضع في الوقت نفسه أسس تلك التركيبات التي عاش فيها المسيح . وكانت عقيدة بولس مع ذلك أقل تعقيداً وأقرب إلى البساطة – بل نسمح لأنفسنا بالقول بأنها كانت أقل ضرباً في الخيال – من المذاهب التأليفية الكبرى التي عرفت في القرن الثاني بأسماء أصحابها من أمثال فالنتين أو بازيليد . إلا أنها مهدت الطريق لهذه المذاهب ؛ فقد أصبحت منذ ذلك الحين نوعاً من « الغنوصية » التأليفية و « إلهاما » يعتمد على تركيبات معينة .

(جـ)

وقد كتبنا مافيه الكفاية ليدرك القارئ أبعاد الصورة التي أصبح عليها عيسى الناصري تحت تأثير أساطير الشفاعة والخلاص الشائعة في بيئة بولس . وكانت أكثر الطقوس فيها إثارة للعواطف تلك المتعلقة بفكرة التطهر وبمفهوم التضحية ، سواء منها التضحية المكفرة عن الذنوب ، بغية تهدئة الغضب الإلهي ،

أو المهداة إلى إله ليرضى ، أو أضحية التقرب التى من شأنها أن توحد بين الأتباع وبين إلههم وتبين أنهم جسم واحد أمامه ، وكان الاثنا عشر ، وهم اليهود الأتقياء ، يواظبون على ارتياد المعبد الأكبر ، ولا يخطر ببالهم أنهم بحاجة إلى طقوس غير تلك التى كانت تقام به ، إلا أنهم كانوا يعلقون أهمية خاصة على شعائر التطهر بالتعميد . ولقد أصبح قبول التعميد ، لدى الكنائس المقامة فى ديار الوثنية ، علامة اعتناق المسيحية ، وكان الاثنا عشر أيضاً عندما يلتقون فى دار أحد الإخوة ، « يطعمون الخبز جماعة » . واتخذ هذا التقليد الشائع بين بنى إسرائيل والذى ترجح أن عيسى كان يقوم به أيضاً عند مشاركته الحواريين فى الطعام — اتخذ فى معناه لديهم ثوب رمز للوحدة : وحدة بين أعضاء الجماعة ووحدة بينهم وبين المسيح . غير أن الدلائل كلها تشير إلى أنهم ، حتى ذلك الوقت ، لم يكونوا ليربطوا بصلة مابين « كسرة الخبز » وبين موت المسيح ، ولم يحملوا التقليد فى ذاته قيماً تبلغ به مستوى الشعائر القدسية ، كما لم يرجعوا أصل وجوده ووجوب القيام به إلى تعاليم أستاذهم .

وشعر بولس بضرورة الكشف عن المغزى العميق لتقليد « تناول الخبز جماعة » . ولقد وجد له تفسيراً ربطه برباط لا ينفصم إلى عذاب عيسى الذى تحمله لتخليص البشرية ، وغمره غمراً بذلك المفهوم الخصب للتضحية من أجل التكفير ومن أجل التقرب والمشاركة فى الذات الإلهية ، فجعل منه غاية لسر رفيع ، وتذكرة ورمزاً حيًّا — أرادهما عيسى نفسه — فيما زعم بولس لما لقيه من عذاب الصليب . وتقول « الرسالة الأولى إلى أهل كورينثيا » (١١ / ٢٣) : « فى الليلة التى سلم فيها (إلى الرومان) أخذ السيد عيسى خبزاً ، وبعد أن شكر الله ، كسر هذا الخبز وقال : « هذا جسدى ، وهو لكم ؛ فلتفعلوا

ذلك دائماً تذكرة لى » . وهكذا أيضاً تناول الكأس ، بعد العشاء ، وقال : «هذه الكأس هى العهد الجديد فى دمى . فلتفعلوا ذلك كلما شربتم : تذكرة لى ؛ ذلك أنكم كلما أكلتم من هذا الخبز وشربتم من الكأس ، كأنما تعلنون موت السيد ، حتى يأتى إليكم » . ولم يكن قد قدر لأى طقس من طقوس « الأسرار » الوثنية أن يذخر بمعانى وفيرة وبآمال جذابة ، مثل ما ذخرت به الطقوس الخاصة بالقربان لدى بولس ، غير أنها كانت من قبيل عائلة الطقوس الوثنية ، ولم تكن نابعة من روح الدين اليهودى ؛ ولقد أدخلت فى كنيسة الحواريين « قطعة من الوثنية » . ولكن المسيحيين تقبلوها أيضاً بصدر رحب لأنها أضافت إلى إيمانهم درجة أخرى من التسامى ، وإن أصبحت بعد ذلك موضوعاً أساسيًّا لتركيبات لاهوتية واسعة النطاق تولدت عنها عقائد كبرى عديدة .

وفى الوقت نفسه اتخذت طقوس الاغتسال للتعميد معنى لايقل عمقاً عما سبق ، ذلك أن بولس يقول فى « الرسالة إلى أهل غلاطية » (٣ / ٢٧) : « أما أنتم الذين عمدتم فى المسيح ، فقد ارتديتم المسيح » . وهذا يعنى أن المسيحى يتحد بالمسيح بواسطة التعميد . ونحن ، فى قولنا هذا ، قد نتجاوز حدود النص الحرفية ؛ فبولس لم يجرؤ قط على القول بأن التعميد يجعل من المسيحى « مسيحاً » ، مثلما تجعل طقوس التضحية بالثور فى عبادة سيبيل من المؤمن بها و « إلهاً هو أتيس » ؛ إلا أن مفهوم هذا التعميد نابع من نفس وجهة النظر التى نفسر بها مفهوم التضحية بالثور . فبالتعميد « يرتدى المسيحى المسيح » كما يرتدى اللباس المقدس المنجى ؛ وهو ينزل رمزيًّا إلى عالم الأموات بتغطيسه فى النهر أو فى إناء التعميد ؛ فإذا ما خرج بعد غطسات ثلاث – تماماً كما خرج

المسيح من القبر بعد أيام ثلاث – أيقن بأنه سوف يمجد يوماً ، إن أراد الله له ذلك ، كما مجد المسيح .

وعلينا أن نؤكد ، وأن نكرر التأكيد ، بأن بولس لم يكن هو المخترع الفرد لكل هذا ؛ وبأن الكنائس الهيلينستية السابقة له ، ومن قبلها جماعات اليهود النازعين إلى التأليف والغنوصية ، قد مهدت جميعاً لعمله وأنشأت الموضوعات الأساسية التى دار حولها تفكيره . ولهذا فمن المبالغ فيه القول بأنه هو المؤسس الحقيقى للمسيحية . أما المؤسسون الحقيقيون للمسيحية ، فهم هؤلاء الرجال الذين أقاموا كنيسة أنطاكيا ؛ وإننا لا نكاد نلمح أسماءهم ، وقد طواها النسيان . إلا أن بولس كان يمتاز عنهم بنشاط أوسع أبعاداً وأوفر دقة ؛ فضلا عن تفوقه الذى لا ينازع فى إدراك معنى هذا النشاط ومداه. إنه لم يؤسس المسيحية إذا عرفناها بأنها تطويع فكرة الانتصار ومملكة الله اليهودية لفكرة الخلاص الهيلينية . ولكن ، بدون بولس ، كان من المحتمل أن لا توجد المسيحية .